

مكة المكرمة في السجلات الصينية في العصر الوسيط

■ حاتم الطحاوي

تكداد تجمع المصادر التاريخية الصينية على أن أول اتصال بين المسلمين والصين تمّ في فترة حكم الإمبراطور يونغ واي Yong Wei (650 - 655م)، وتحديدًا خلال العام الثاني لحكمه، عندما أرسل الخليفة عثمان بن عفان - الذي ورد ذكره في المصادر الصينية تحت اسم Kam - mi - mo, mo - ni (أمير المؤمنين) - سفارة إلى البلاط الصيني، لتُعرف دولة الخلافة الإسلامية بعد ذلك في سجلات أسرة تانغ باسم Ta Shikuo. وفي ما بعد سمّت المصادر التاريخية الصينية خلفاء الدولة الأموية بأصحاب الرداء الأبيض، والخلفاء العباسيين بأصحاب الرداء الأسود¹.

غير أن اسم «مكة» لم يرد في المصادر التاريخية الصينية الخاصة بأسرة تانغ الحاكمة (618 - 907م)، في حين ظهر لأول مرة في الوثائق الخاصة بأسرة سونغ الملكية (960 - 1279م) تحت اسم Ma - Kia²

1 - His Jung, op. cit, pp.410, 892; Chau Ju -Kua, op. cit, chap.22, p.117, Li Ying - Yu Yusen, op. cit, pp.8-9; Hoyland, op. cit, pp.245, 252 no. 42, 43, p.253.

2 - جعفر كزار، المرجع السابق، ص179، هامش (110).



كذلك لدينا إشارة غير مباشرة وردت في تاريخ أسرة سونغ الشمالية، وتحديدًا في عام 995م، حينما ذكرت المصادر التاريخية الصينية وصول أحد الربانة المسلمين Pu Ya To Li بسفينته إلى ميناء كانتون لممارسة التجارة، قبل أن يقوم بالسفر براً إلى العاصمة من أجل تقديم هداياه للإمبراطور تاي تسونغ Tai Tsung (976 - 988م). وفي البلاط الصيني أجرى الإمبراطور حواراً مطولاً مع الربان، وسأله عن بلاده، فأجابه بأن بلاد العرب Ta shi تجاور أراضي الإمبراطورية البيزنطية Ta T'sin التي خضعت للمسلمين، وأخبره أيضاً أن عاصمة العرب محاطة بالتلال والبحر¹.

ويلتقط برتشنايدر Bretschneider تلك الإشارة ليذكر أن تلك المعلومات لا تنطبق على أية عاصمة في بلاد الخلافة الإسلامية، سواء أكانت بغداد أم بخارى عاصمة السامانيين، وأنها تنطبق بشكل واضح على مدينة مكة المكرمة².

ويمكننا أيضاً أن نؤيد هذا الرأي الذي يشير إلى مكة باعتبارها العاصمة الدينية والروحية المقدسة لدى المسلمين، وأن الربان المسلم أشار إلى الجبال المحيطة بها، وإلى البحر الأحمر حيث ميناء جدة الذي ترسبه سفن القادمين إلى مكة المكرمة؛ لأن بغداد عاصمة الخلافة العباسية (764 - 1258م) لم تكن تحيط بها التلال أو البحر، وكذا مدينة بخارى عاصمة الدولة السامانية (875 - 999م) القريبة من الأراضي الصينية.

ولم تكن رحلة ذلك الربان العربي آنذاك فريدة في نوعها؛ إذ تحدّثت السجلات الصينية عن وصول 39 سفارة عربية إلى الصين خلال الفترة 924 - 1208م. لعل ما يهمنا منها في بحثنا الحالي هو وصول سفارة من جدة Cang-Tan إلى البلاط الصيني³.

كما وردت بعض المعلومات المهمة الخاصة بمدينة مكة المكرمة في

1- انظر: Bretschneider, op. cit, pp. 14, 15

Loc. Cit.

2-

3- جعفر كرار، المرجع السابق، ص 151.

الوثائق والسجلات الخاصة بأسرة يوان Yuan الملكية بالصين (1271-1368م) التي تحسّنت خلالها أحوال المسلمين لدرجة كبيرة. من ذلك معلومة وردت في كتاب «السفر إلى الغرب»، الذي يذكر أن مكة Tian Fang تقع على مسافة ثلاثمائة لي Li¹ من عاصمة الخلافة الإسلامية، وتوجد بها الكعبة التي تحتوي على الملائكة السماوية، ودُفن بها جد نبي المسلمين الذين يحتفظون داخل الكعبة بأعداد كبيرة من كتابهم المقدس أيضاً. كما أن مكة تبسط سيطرتها على عشرات المدن المحيطة بها².

وردت بعض المعلومات المهمة الخاصة بمدينة مكة المكرمة في الوثائق والسجلات الخاصة بأسرة يوان Yuan الملكية بالصين (1271 - 1368م) التي تحسّنت خلالها أحوال المسلمين لدرجة كبيرة.

كما تمت الإشارة أيضاً إلى قيام الصينيين بالذهاب إلى مكة وأداء فريضة الحج، ودلينا على ذلك التعرف على لقب جد الشاعر الصيني المسلم Mai-Lu الذي كان يدعى Ha-Chih؛ أي (الحاج)، وهو ما أظهر أن الرجل قام بالحج في مكة في بداية عصر أسرة يوان بالصين³.

ويعدُّ شو كوفاي Chou Ku-Fei مفتش الجمارك في فوجيان على عهد أسرة سونغ Song الجنوبية (1127-1279م)، والجغرافي الشهير

الذي ألف كتابه Chu-Fan-Chi (سجلات البلاد الأجنبية) عام 1178م، هو الصيني الأول الذي تحدث باستفاضة وتفصيل عن مكة المكرمة Makia، فأشار إلى أنه يمكن الوصول إليها عبر رحلة برية تستغرق ثمانين يوماً انطلاقاً من مدينة مرياط Mali - pa على ساحل حضرموت، كما ذكر - اعتماداً على ثقافته البوذية - أن مكة هي المكان الذي وُلد فيها بوذا إله العرب!

1- لي Li وحدة قياس صينية للمسافات تبلغ ثلث الميل أو نصف الكيلومتر تقريباً.

2- جعفر كزار، المرجع السابق، ص 158، اعتماداً على المرجع الصيني:

Zhang Xin Land Zhu Jia Qin, p. 306.

3- جعفر كزار، المرجع السابق، ص 159.

Ch'en Yuan, Western and Central Asians in China under The Mongols, Their Transformation into Chinese, Los Angeles, 1989, pp. 164- 165.



وأشار إلى الكعبة على أساس أنها بيت إله العرب الذي بني من أحجار كريمة مختلفة الألوان¹.

كما أشار شو كو - فاي إلى أنه في ذكرى وفاة نبي المسلمين من كل عام يحضر الحجاج لزيارة بيته (الكعبة!)، وأن جميع حكام العرب يرسلون الناس حاملين هدايا من المجوهرات والذهب والفضة، كما يقومون بتغطية الكعبة بكسوة من الحرير المطرز والموشى، قبل أن يشرعوا في أداء شعائرتهم، وأهمها أداء الصلاة. كما لفت نظره أنه على الرغم من بُعد المسافة بين مكة وباقي البلدان الإسلامية؛ فإن رحلات الحج لم تتوقف؛ إذ احتشد الجميع من أجل التعبد أمام الكعبة المشرفة².

وكذلك الحال، مع مفتش الجمارك الصيني الآخر شو جو - كوا Chau Ju Kua في ميناء كانتون الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي، الذي لم يكتف بمهنته، كما لم يستطع كبح جماح شغفه بمعرفة أخبار العالم خارج الصين من أفواه الربابنة والتجار والبحارة، فضلاً عن اعتماده بشكل واضح على ما كتبه شو كو - فاي سابقاً، وكذا بعض السجلات الملكية الصينية مثل T'ung-Tien. وهو ما جعله يخلف لنا كتاباً في غاية الأهمية تحدث فيه عن عشرات البلاد والموانئ في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر وحتى البحر المتوسط. كما اختص بالحديث أيضاً عن العديد من المدن التجارية والموانئ الإسلامية في آسيا وإفريقية.

على أية حال، ردّد شو غو - كوا ما سبق أن أشار إليه شو كو - فاي عن مكة المكرمة في القرن السابق له؛ غير أنه أضاف معلومة في غاية الغرابة

Chau Ju-Kua, op. cit, p. 125, note.

- 1

وراجع أيضاً ما كتبه الباحث الصيني يونغ هو تشانغ Yung-Ho Chang عن شو كو - فاي وحديثه عن مكة وغيرها:

The Development of Chinese Islam During The T'ang and Song Dynasties (618- 1276 A. D), A Thesis, Mc Gill university, Canada, 1999, p. 70.

وانظر الخريطة المرفقة في ملاحق البحث.

Chau Ju Kua, op. cit, p. 125. Note.

- 2

عن قبر الرسول الكريم محمد Ma-hia-wu، حيث ذكر أنه يبعد عن الكعبة المشرفة بمسافة قريبة، عندما أشار إلى أنه يوجد عنده ضوء لامع وساطع بشكل مستمر ليلاً ونهاراً، بحيث لا يستطيع أحد الاقتراب منه، ومن يجرؤ على القيام بذلك يفقد بصره في الحال¹. كما ذكر أيضاً أنه إذا ما توفي أحد المسلمين، وقام آخر بتدليك صدره بحفنة من تراب قبر النبي ﷺ، فإنه يعود للحياة من جديد، وتعد تلك الإشارة هي الأولى من بين المصادر التاريخية - في ما أعلم - التي ترد فيها أسطورة الضوء الساطع الذي يخرج من قبر النبي ﷺ صوب السماء.

أشار شو كو - فاي إلى أنه في ذكرى وفاة نبي المسلمين من كل عام يحضر الحجاج لزيارة بيته (الكعبة!)، وأن جميع حكام العرب يرسلون الناس حاملين هدايا من المجوهرات والذهب والفضة.

ومن الغريب أن يتكرر ذلك التصور في الكتابات الصينية منذ عام 1178م، حينما كتب شو كو - فاي في عمله الجغرافي الكبير، وحتى شو جو - كوا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، إلى أن تلقف المترجم الصيني ما هوان Ma Huan تلك الأسطورة في عام 1433م، وأعاد إنتاجها في كتابه، على الرغم من تصحيحه لخطأ المصادر الصينية السابقة بخصوص وجود قبر الرسول بالمدينة المنورة وليس في مكة المكرمة².

على أننا نجد صدى لتلك الأسطورة أيضاً في أحد المصادر التاريخية الصينية التي تم تصنيفها بعد ذلك في عام 1520م، الذي ذكر - ويبدو أن ذلك كان نقلاً عن ما هوان - أن قبر نبي المسلمين يقع في المدينة، ويوجد أعلاه ضوء ساطع يتألف من خمسة ألوان، يتلألأ ليلاً ونهاراً³.

1- Ibid, p. 124. وهو يعتمد في هذه الرواية أيضاً على ما سبق أن ذكره شو كو - فاي عام 1178م.

2- راجع: Ma- Huan, op. cit, p. 177.

ومن الغريب أن يتبنى ما هوان ذلك الحديث على الرغم من زيارته للمدينة وقبر الرسول الكريم.

3- Hung Xingzeng, Xiyang Chaogong DianIn, p. 186.



ويرى الباحث أن تلك الأسطورة قد انتقلت في ما بعد من المصادر التاريخية الصينية إلى المصادر التاريخية الأوروبية، لنجد الرحالة دي فارتيمو De Vartema الذي زار المدينة المنورة عام 1503م يتحدث عن صراخ وجلبة قام بها بعض الشيوخ الموجودين في المسجد النبوي، وحديثهم عن ضوء منبعث من قبر النبي ﷺ نحو السماء، كما زعموا أن الآخرين - دي فارتيمو ورفاقه في القافلة - لا يستطيعون رؤية ذلك الضوء لأنهم مماليك، غير صادقين في عقيدتهم¹.

بينما علق الرحالة الإنجليزي ريتشارد بيرتون. R. Burton الذي زار المدينة المنورة عام 1853م على ما سمعه من العاملين في المسجد النبوي حول صعود ذلك الضوء الساطع إلى السماء، وإمكانية أن يسبب العمى لمن يتعرض له، بأن ذلك لم يحدث أبداً².

وعلى أية حال فقد راجت فكرة وجود قبر الرسول في مكة كثيراً في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى، غير أن ما يهمننا هنا هو تتبع رواج الخرافات والأساطير التي بدأتها المصادر التاريخية الصينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين حوله. كل ذلك فتح الباب أمام رواج خرافات أخرى راجت لدى بعض حجاج الشرق الأقصى كالهنود، وبعض الكتابات الأوروبية أيضاً حول أن قبر النبي الكريم موجود في مكة المكرمة، ومرفوع في الهواء بواسطة قوى سحرية ومغناطيسية خارقة بجوار الكعبة المشرفة³.

1- فارتيمو، رحلات فارتيمو (الحاج يونس المصري)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، القاهرة، 1994م، ص 46 - 47.

2- Burton, R. F, Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Mecca, vol, 2, London, 1855, ch.xvi, p. 111.

والحقيقة أن بيرتون كانت له تفسيرات عقلانية تجاه ذلك؛ إذ ذكر أن بعضهم كان يرى ذلك الضوء المنبعث من قبر النبي بسبب فرط الحب والتعلق به. كما أشار أيضاً إلى أن ذلك النوع من الأساطير والخرافات ليس موجوداً فقط لدى المسلمين، بل لدى المسيحيين الأوروبيين كاعتقادهم في تجلي السيدة العذراء للأطفال في جبال الألب بفرنسا.

3- انظر: مايكل ف. بيرسون، الحج إلى مكة المكرمة من شبه القارة الهندية 1500 - 1800م، ترجمة معراج مرزا، بدر الدين يوسف، مركز تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، مكة، 1431هـ، ص 13، 57.

وهكذا تلقى القبطان المسلم زينغ هو Zheng Hu¹ في عام 1405م أمراً من الإمبراطور يونغ لي Yong Li (1402 - 1424م)، أحد الأباطرة الأوائل لأسرة مينغ Ming (1368 - 1644م) بقيادة الرحلة الأولى لأسطول الكنز الذي قامت بزيارة مدن وموانئ تشامبا Champa وملقا Malaga وجاوا Java وتايلاند Thailand وسومطرة Sumatra وقاليقوت Calicut وسريلانكا Srilanka.

وتكررت رحلات أسطول الكنز بقيادة زينغ هو لتبلغ سبع رحلات، وصل بعضها إلى السواحل العربية في الخليج العربي وبحر العرب، كالرحلة الرابعة

(1413 - 1415م) التي زار فيها الأسطول موانئ هرمز وظفار، والخامسة (1417 - 1419م) التي زارت أيضاً هرمز وعدن وصنعاء، بينما زارت السادسة (1421 - 1422م) سواحل هرمز وعدن وصنعاء وظفار.

على أن ما يهمنا في بحثنا بشكل خاص هي الرحلة السابعة لزينغ هو وأسطول الكنز (1432 - 1433م) التي وصلت أيضاً إلى موانئ هرمز وظفار وعدن وصنعاء وإلى ميناء جدة

Chih-ta؛ لأن البعثة الصينية نزلت في الميناء الأخير، متخذة طريقها لتقوم بزيارة تاريخية لمدينتي مكة المكرمة، والمدينة المنورة كما أشارت بعض

راجت لدى بعض حجاج الشرق الأقصى كالهنود، وبعض الكتابات الأوروبية أيضاً حول أن قبر النبي الكريم موجود في مكة المكرمة، ومرفوع في الهواء بواسطة قوى سحرية ومغناطيسية خارقة بجوار الكعبة المشرفة.

= - وأشار الرحالة الأوروبي كارستن نيبور الذي زار شبه الجزيرة العربية عام 1762م أنه لم يجد أصلاً لتلك القصة المثيرة للدهشة والتي راجت في أوروبا بأنه يوجد مغناطيس كبير يقوم برفع قبر محمد في الهواء. راجع:

Niebuhr, K, Travels Through Arabia and other countries in The East, vol 2, London, 1792, p. 40.

1- هو المسلم القبطان حجي محمود شمس الدين، يعود في نسبه إلى علي بن أبي طالب ينتمي لعرق هوى المسلم في الصين. وُلد عام 1371م. قاد أول أسطول للكنز عام 1405م. عن زينغ هو وشخصيته ورحلاته، راجع أيضاً:

Geoff Wade, "The Zheng, His Voyages", in, Asia research institute, series, no.31, University of Singapore, October, 2004; Dreyer, E, Zheng He: China and The Oceans in The Early Ming Dynasty, 1405- 1433, London, 2006.



المصادر التاريخية المملوكية إلى وصول السفن الصينية إلى ميناء جدة في موعد وصول أسطول زينغ هو نفسه.

وبعد قراءة متأنية لتقرير ما هوان عن زيارته لمكة المكرمة والمدينة المنورة نجد أنه امتلاً بالعديد من المعلومات الجغرافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالمدينتين، خاصة تلك المتعلقة بمكة، فضلاً عن كونه دليلاً على وجود علاقات دبلوماسية - تم تأكيدها في ما بعد - بين الصين ومكة المكرمة.

ذكر ما هوان أنه يمكن الوصول إلى مكة المكرمة عبر الإبحار من ميناء قاليقوت (Kuli (Calicute) باتجاه الجنوب الغربي لفترة ثلاثة أشهر قمرية حتى الوصول إلى ميناء جدة Chih-ta¹.

غير أن ما هوان أخطأ عندما ذكر أن المدينة المنورة تقع على بعد مسيرة يوم واحد باتجاه الغرب من مكة المكرمة. كما أنه أشار أيضاً في عجالة إلى حاكم مكة من دون أن يسميه²، كما لاحظ ما هوان أن مناخ مدينة مكة يتميز بالحرارة طوال العام، ويتصف بندرة الأمطار، غير أنه لاحظ نزول الندى بغزارة ليلاً لدرجة أن نباتات وأشجار المدينة تعتمد عليه بشكل كبير³.

ويمكننا ملاحظة أن زيارة مكة المكرمة كانت المحطة الأخيرة للمبعوثين الصينيين على متن الرحلة السابعة التي أبحرت من الموانئ الصينية في يناير 1432م لتعود إليها في أغسطس 1433م.

أشار ما هوان إلى نبي المسلمين ودعوته للإسلام، وذكر أن سكان مكة

1- Ma Huan, op. cit, p. 173. غير أن البروفيسور ميلز يذكر أن إشارة ما هوان للإبحار جنوب غربي قاليقوت ليست دقيقة تماماً، وأنه من المفروض أن يكون اتجاه الإبحار غرباً باتجاه رأس عسير راجع: Capo Guardafui, p. 173. Note. 4.

2- Loc. cit. عندما وصلت السفارة الصينية إلى مكة المكرمة كانت المدينة تحت حكم الشريف بركات بن حسن (1425 - 1453م).

3- Ibid, p. 176.

قد اعتنقوا الإسلام، ولم يسمحوا لأنفسهم حتى الآن بأن يحدوا عنه أبداً، وأنهم ظلوا على تمسكهم بقوانين الشريعة الإسلامية، لذا فإن مكة تعدُّ أكثر البلدان سعادة بذلك¹، ومن الغريب أن ما هوان لم يذكر اسم النبي محمد Ma-hia-wu، على الرغم من سابق ذكره في المصادر الصينية الباكورة، واللاحقة أيضاً.

كما أشار ما هوان بالتفصيل إلى المسجد الحرام الذي سماه مسجد البيت السماوي، وإلى الكعبة المشرفة K'ai-a-pai، وذكر أنه يحيط بها سور من الخارج به 466 باباً، على جانبها 467 عموداً من اليشم الأبيض²، كما لاحظ ما هوان أيضاً وجود أربع مآذن في الأركان الأربعة للمسجد الحرام، بل إنه أشار أيضاً إلى رواقات يستخدمها الشيوخ في أداء الصلوات³، وبحسب ما نفهم فإن ذلك ربما كان دليلاً على مكان صلاة أتباع المذاهب الأربعة في الحرم المكي.

ذكر ما هوان أن سكان مكة قد اعتنقوا الإسلام، ولم يسمحوا لأنفسهم حتى الآن بأن يحدوا عنه أبداً، وأنهم ظلوا على تمسكهم بقوانين الشريعة الإسلامية، لذا فإن مكة تعدُّ أكثر البلدان سعادة بذلك.

كما وصف الكعبة المشرفة بأنها بُنيت عبر خمس طبقات من الأحجار الملونة، وجدرانها من

Ibid, p. 174.

-1

Loc. Cit, Polliot, op.cit, p.302.

-2

ذكر أنه يوجد في الواجهة 99 عموداً، وفي الخلف 101 عمود، وليصبح المجموع 467 عموداً. ذكر التجيبي أن عبد الملك بن مروان (26 - 86هـ/646 - 705م) أول من استخدم الرخام في أعمدة المسجد الحرام، وزاد عليها ابنه الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/707 - 714م) ليجعل على رؤوس الأعمدة ذهباً. راجع: مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، تونس، 1975م، ص 241.

Ibid, p. 176 وهذا ما سبق أن أشار إليه العديد من الرحالة والحجاج، راجع التجيبي، المصدر السابق، ص 296. وهذا أيضاً ما لفت إليه جوزيف بتس حين زار المسجد الحرام في عام 1680م من وجود أصحاب المذاهب الأربعة وصلواتهم. انظر: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، القاهرة، 1995م، ص 55.



الطين المعجون بماء الورد والعنبر بحيث يفوح منها العبير الطيب دائماً، وبداخلها أعمدة تشكل خمس عارضات كبرى من الخشب المضمخ بالبخور. كما أشار ما هوان إلى أن الكعبة مربعة الشكل، ومغطاة بكسوة من الحرير الأسود.¹ بينما يقع قبر اسماعيل Ssu-mai على يسار الكعبة، وهو مشيد من الزمرد Sa-pu-ni الأخضر، بينما شيد السور المحيط به من الزبرجد الأرجواني.²

ولم يفث الصيني ما هوان أن يتحدث عن شعيرة الحج في مكة المكرمة، فذكر أن المسلمين يقومون سنوياً في اليوم العاشر من الشهر القمري الثاني عشر (الهجري) بأداء الحج والطواف بالكعبة المشرفة، غير أنه لفت النظر أيضاً إلى قيام الحجاج - بُعيد الانتهاء من الحج - باقتطاع قطع من الكسوة الحريرية للكعبة، والاحتفاظ بها كتذكار عند العودة إلى بلادهم. وبعدها تقوم السلطات في ما بعد بصنع كسوة جديدة للكعبة.³

وكان من الطبيعي بالنسبة للمسلم ما هوان أن يكتب عن سكان مكة المكرمة، فأشار إلى بنيتهم القوية، ووسامتهم مع سمار بشرتهم، وارتدائهم للعمام وأردية طويلة وأحذية جلدية. بينما أشار إلى أن المسلمات من نساء مكة كنّ يغطين كامل رؤوسهن، بحيث لا يستطع أحد أن يرى وجوههن.⁴

كما أشار إلى أن سكان مكة يتحدثون اللغة العربية A-la-pi. وكانت لهم

1- Ibid, pp. 174-175 غير أنه أشار إلى وجود أسدين من أجل حراسة باب الكعبة، ويعلق البروفسور ميلز على ذلك بأن رواية ما هوان هي الوحيدة التي أشارت إلى وجود الأسود عند الكعبة، وأن ذلك غير مقبول، كما ذكر التجيبي أيضاً أن الكعبة قريبة من التريبع، وبذلك سميت كعبة، والتكعب هو التريبع، وكل بناء مربع كعبة. ويقال إن: الناس كانوا بينون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة، راجع، المصدر السابق، ص 248.

2- Ibid, p. 175.

3- Ibid, p. 175 ويبدو أن تلك العادة استمرت حتى القرن السابع عشر الميلادي، حيث نجد جوزيف بتس الذي زار مكة المكرمة عام 1680م، يذكر مسألة تقطيع كسوة الحج، وبيعها للحجاج المتلفين على شرائها من أجل أن يضعونها على صدورهم حين يحين أجلهم، أو يحملوها معهم كتعويذة ضد الخطر. راجع: رحلة جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 54.

4- Ibid, p. 174.

أعرافهم وتقاليدهم الرائعة التي لم تسمح بأن تشكو أية عائلة بها من الفقر، فضلاً عن تحريم شرب الخمر بها¹.

وكان من الطبيعي أيضاً أن يشير ما هوان إلى بئر زمزم A-pi-San-San وأهميته. غير أنه من الغريب أن ذكر أنها تقع في المدينة المنورة، وخلف قبر الرسول ﷺ!!².

وبصرف النظر عن خطأه في تحديد مكان بئر زمزم، وموقع المدينة المنورة Mo-ti-na من مكة المكرمة فإن ما يهمننا هو حديثه عن عدوية

كان من الطبيعي بالنسبة للمسلم ما هوان أن يكتب عن سكان مكة المكرمة، فأشار إلى بنيتهم القوية، ووسامتهم مع سمار بشرتهم، وارتدائهم للعمائم وأردية طويلة وأحذية جلدية.

وصفاء مياهها. غير أنه أشار الى ما رآها ميزة لم يذكرها أي من الرحالة الشرقيين والغربيين قبله، بعدما ذكر أن المسافرين يجلبون معهم مياه زمزم بعد تخزينها في أماكن على متن السفن. فإذا ما واجهوا إعصاراً وارتفاعاً للأمواج إبان رحلتهم البحرية، يقومون برشها على المياه، وعندها تهدأ الرياح والأمواج في الحال³.

وتفسيرنا هنا أن من المحتمل طبعاً أن استمع الصيني المسلم ما هوان للعديد من الإشارات إلى

فائدة ماء زمزم، وخاصة الحديث المختلف على صحته بأن «ماء زمزم لما شرب له»⁴؛ لذا فقد فكر - مستخدماً القياس العقلي - ووصل إلى نتيجة

Loc. cit.

-1

Ma Huan, op, cit, p. 177.

-2

من الغريب أن يخطئ ما هوان هنا خطأ مزدوجاً، فقبل إشارته الخاطئة إلى مكان بئر زمزم، يشير إلى أن المدينة المنورة Mo-ti-na تقع على مسيرة يوم كامل غرب مكة المكرمة. ويذكر البروفسور ميلز أن أخطاء ما هوان وعدم الدقة في الوصف أكثر من مرة، قد أوصلت البروفسور ديوفنداك Duyvendak إلى استنتاج أن ما هوان لم يزر بنفسه مكة أو المدينة. راجع 7 not.

Loc.cit. وتحديث العديد من الرحالة والحجاج عن حلاوة وعدوية ماء بئر زمزم. راجع على سبيل المثال: التجيبي، المصدر السابق، ص 318.

-3

-4 عن ذلك راجع: محمد بن إدريس القادري، «إزالة الذهن والدله عن المتحير في صحة حديث =



مؤداها أنه يمكن رشها أيضاً على الأمواج العاتية التي تهدد حياة البحارة وبتحطيم السفن وإغراقها، فربما تهدئ من الأمواج وكذا من الرياح والعواصف.

ولأننا نعرف بأن للماء رمزية غنية يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات رئيسة بوصفه مصدراً للحياة، ووسيلة للتطهر. كما يرمز البحر عند الشعوب القديمة لعالم الشر والقوة الشيطانية،¹ لذا يمكن القول أيضاً إن: ما هوان - سليل الثقافة الصينية القديمة أيضاً - قد رأى أن ماء زمزم الذي يحمل قداسة معينة، يمكن أن يُرش على مياه البحر ذات القوة الشريرة والشيطانية، لتخدمها وتهدئ من هياجها.

ويستمر ما هوان في روايته ليذكر أنه بعد وصول أسطول الكنز إلى ميناء قاليقوت وجدوا به سفارة من مكة المكرمة عائدة من البلاط الصيني. فقام هونغ Hung باختيار مترجم وسبعة رجال آخرين وبصحبته كميات من البورسلين الصيني والمسك، وبضائع أخرى ليلتحقوا بالسفارة المكيّة في طريق عودتها إلى بلادها. واستغرقت رحلة أولئك الرجال الصينيين إلى مكة والعودة عاماً كاملاً حتى العودة إلى العاصمة الصينية، حاملين معهم أنواعاً عديدة من السلع والبضائع غير التقليدية، وذات القيمة النادرة كالزراف Ch'I Lin والأسود والنعام وغيرها. على أن ما يهمننا هنا هو أن تلك السفارة الصينية عادت ومعها - لأول مرة - رسم دقيق للغاية للكعبة المشرفة².

= ماء زمزم لما شرب له»، تحقيق زهير الشاويش، تخريج محمد ناصر الألباني، القاهرة، 1330هـ، ص، الذي يؤكد صحة الحديث، على الرغم من تأكيد العديد على عدم صحته. وأن الحديث الصحيح هو: عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خير الماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم».

1- راجع: فيليب سيرنغ، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دمشق، 1992م، ص 350، 360.

2- Loc. cit, Pilliot, op.cit, p.303.

ولا بد أن تلك الحيوانات كانت تصل إلى مكة من أسواق الشرق الأفريقي، كما أشار ما هوان أيضاً أن تلك السفارة عادت إلى البلاط الصيني وبرفقتها خمسة سفراء قام حاكم مكة بإرسالهم إلى العاصمة الصينية. راجع أيضاً، جعفر كزار، المرجع السابق، ص 161.

ولدينا في الفترة الزمنية نفسها من سنوات حكم أسرة مينغ الصينية تقرير آخر عن مكة المكرمة كتبته الصيني المسلم فا هسين Fei xin (1388-1433م) الذي عمل أيضاً مترجماً على متن سفن أسطول الكنز، وزار الموانئ العربية في الخليج والمحيط الهندي في الرحلات الأربع الأخيرة تحت قيادة القائد البحري زينغ هو¹.

تناول فا هسين في كتابه «المسح الشامل للنجمة الطوافة» بعض الإشارات الجغرافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية عن مكة المكرمة، وإن كانت بدرجة أقل عمّا ذكره ما هوان.

**رأى ما هوان - سليل
الثقافة الصينية
القديمة - أن ماء زمزم
الذي يحمل قداسة معينة،
يمكن أن يُرش على مياه
البحر ذات القوة الشريفة
والشيطانية، لتخمد
وتهدئ من هياجها.**

وإذا كان فا هسين لم يتحدث عن كيفية الوصول إلى مكة المكرمة، فإنه أشار إلى أنها بلاد صحراوية، تقع في المكان القديم ليون تشونغ Yun-ch'ung، كما أنها تعرف أيضاً «بالإقليم الغربي»².

غير أن فا هسين تحدث عن مناخ مكة بوصفه معتدلاً ومناسباً طوال الفصول الأربعة، ثم انتقل إلى معلوماته الدينية عن المدينة المقدسة لدى المسلمين، فذكر أن سكاّنها قاموا منذ زمن سحيق ببناء مسجد في مكة، بحيث يقوم حاكم المدينة والسكان في يوم الجمعة بأداء الصلوات معاً³.

1- عن فا هسين وتقريره الهام عن مكة المكرمة وغيرها من المدن والموانئ العربية. راجع: Fei Xin, Hsing - Cha sheng - Lan, The Overall of the Star Raft, Trans. By, Mills, J, Wiesbaden, 1996, pp. 104 - 106.

وانظر أيضاً: Pilliot, P, op. cit, pp. 264 - 268, 312.

2- راجع: Fei xin, op. cit, p. 104.

ويرى البروفسور ميلز Mills أن Yun-ch'ung هي نسخ لاسم يثرب Yathreb، أو الاقليم المطوق والمحيط بها. وربما كانت هي الحجاز Al-Hijaz على ساحل البحر الأحمر؛ لأن مكة المكرمة قد شكلت جزءاً من هذا الإقليم.

3- راجع: Fei xin, op. cit, p. 105.

وبحسب عباراته «إن سكان مكة يقومون في اليوم الأول من الشهر بعبادة السموات».



كما أشار في عجالة إلى المسجد الحرام، وأشار إلى انقسامه إلى أربع ساحات، وأن أعمدته من اليشم الأبيض، وأرضيته من الرخام الأصفر. ولاحظ فا هسين - بعكس ما هوان - وجود الحجر الأسود، فوصفه بأنه مربع الشكل، يبلغ حجمه أكثر من عشر أقدام. كما زعم أن هذا الحجر قد سقط من السماء منذ فترة سحيقة إبان عصر أسرة هان Han الصينية، وأن المسجد عبارة عن طابقين، ويبدو شكله كالمعبد البوذي Pagoda¹.

كما تناول فا هسين بالإشادة سكان مكة المكرمة، الذين وصفهم بأنهم يرتدون ملابس طويلة تتميز بلونها الأبيض، ويعيشون في سلام وطمأنينة تامة؛ لأنهم يحترمون الأعراف والتقاليد الموجودة بشكل كبير؛ بحيث إنهم - وبحسب عباراته - «ينزعون إلى فعل كل ما هو صادق ونزيه. ويعيش الأغنياء بانسجام وتوافق إلى جانب الفقراء»².

وفي ذلك كله - في ما نرى - إشادة من فا هسين بتدوين سكان مكة، والتزامهم بقواعد الدين الإسلامي الصحيح، لدرجة أننا نجده أيضاً يذكر أن حاكم مكة لا يضطر إلى الاعتماد على القوانين الجنائية؛ إذ لا يوجد أيّ لصوص بين سكان المدينة³.

وهناك العديد من الوثائق الموجودة في السجلات الصينية التي تشير إلى استمرارية العلاقات بين مكة والصين، منها تلك التي تتناول وصول شاه زيان، شيخ إحدى القبائل المكيّة مع آخرين تمّ إرسالهم من قبل حاكم مكة إلى البلاط الصيني⁴.

1 - Loc. Cit.؛ يشير فا هسين هنا إلى أسرتي هان الغربية (206 ق.م - 24م) وهان الشرقية (25 - 220م). في إشارة إلى قدم الحجر الأسود بالكعبة المشرفة.

2 - Fei Xin, op. cit, p. 104.

3 - Loc. Cit.

4 - Southeast Asia in The Ming Shi - Lu, in, www. Epress.nus.edu.sg; Xuan - de: Year 8, Month Intercalary, 8, Day, 1, (14 sep. 1433), Record 1601 of 32779, Pilliot, op.cit, p.323.

انظر أيضاً هذا البحث المهم المدعم بالوثائق الصينية: محمد محمود خليل، «الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينغ نموذجاً»، =

ولدينا وثيقة أخرى في سجلات أسرة مينغ بتاريخ 3 أكتوبر 1433م، تستكمل أحداث الوثيقة السابقة، وتشير إلى أن البلاط الصيني أمر بمكافأة سفراء هرمز وظفار وعدن ومكة المكرمة - بالإضافة الى سفراء آخرين غيرهم من موانئ المحيط الهندي - بحيث بلغ عدد الجميع 66 سفيراً، بهدايا صينية كالجواكت المبطنة، والأحذية والبنطلونات بشكلٍ ملائم، فضلاً عن أغطية للرأس وأحزمة!¹

كما ورد اسم مكة المكرمة Mecca من جديد في إحدى الوثائق المتعلقة بتاريخ 11 أغسطس عام 1436م، وهي التي تتحدث عن أحد عشر مبعوثاً وسفيراً من العديد من البلدان والمدن، وفيها مبعوث مكة المكرمة، وهرمز، وظفار، وغيرهم الذين قدموا للبلاط الصيني لتقديم الضريبة، ولم يعودوا بعد إلى بلادهم. ولأنهم يجب أن يعودوا، أمر الإمبراطور بسفينة يُرحّل المبعوثون جميعاً على متنها². وكان ذلك على عهد إمبراطور أسرة مينغ زنج تونغ Zheng Tong (1435 - 1449م/ 1457 - 1464م).

تناول فا هسين بالإشادة سكان مكة المكرمة، الذين وصفهم بأنهم يرتدون ملابس طويلة تتميز بلونها الأبيض، ويعيشون في سلام وطمانينة تامة؛ لأنهم يحترمون الأعراف والتقاليد الموجودة بشكل كبير.

وبعد نصف قرن جديد من ذلك، وتحديداً في

20 أبريل عام 1487م في عهد الإمبراطور شينغ هوا Cheng-hun (1464 - 1487م) يعود اسم مكة المكرمة ليظهر من جديد في وثائق أسرة مينغ الصينية؛ إذ تخبرنا إحدى الوثائق النادرة أنه تحت زعم أن أخاه الأكبر

= المؤتمر الدولي الرابع للعلاقات العربية الصينية «التاريخ والحضارة»، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ والحضارة، 13 - 14 مارس 2012، ص 220 - 275، خاصة ص 242.

1 - www.Epress.nus.edu.sg; Xuan - de year 8, Month 8, Day, 20 (3 oct 1433), Record 1602 of 3279؛ محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 245.

2 - www.epress.nus.edu.sg

Record 1694 of 3279 (11 August 1436) Record 1694 of 3279؛ Zheng - Tong - year 1, Month 6, Day 29 (11 August 1436) Record 1694 of 3279؛ محمد محمود

خليل، المرجع السابق، ص 245.



نا - دي Na-di كان شيخاً يرتحل في الصين من مكان لآخر لفترة 40 عاماً، رغب علي Ali - أحد مواطني مكة - في البحث عن أخيه، فتوجه إلى إقليم يو - نان Yun-nan بالصين مصطحباً معه كميات هائلة من السلع والبضائع، وبرفقته مسافر آخر من ملقا Melaka، وحضرا إلى العاصمة لتقديم الضريبة للإمبراطور الصين¹.

ويمكننا من خلال القراءة الجيدة للوثيقة السابقة استنتاج أن أحد سكان مكة المكرمة الذي ورد بالوثيقة تحت اسم نا - دي Na-di، قد ارتحل إلى الصين ومكث بها 40 عاماً يدعو للإسلام بها؛ وذلك لأن الوثيقة الصينية تصفه بأنه رجل دين رحال Itinerant holy man. وبحسب التوصيف الإسلامي فقد يكون شيخاً يدعو للإسلام في ربوع إقليم يو - نان بالصين لأربعة عقود قبل وصول أخيه علي للبحث عنه عام 1487م.

واستمرت السفارات القادمة من مكة المكرمة إلى الصين بعد ذلك، من ذلك قيام شريف مكة بإرسال سفارة إلى البلاط الصيني عام 1490م في عهد الامبراطور هونغ زي Hong Zhi (1487 - 1505م)، قدمت إليه هدايا قيمة تراوحت ما بين الخيول والنعام فضلاً عن الأحجار الكريمة².

كذلك أرسل الشريف بركات (903 - 931هـ/1497 - 1524م) حاكم مكة عام 1518م سفارة أخرى حملت الهدايا للإمبراطور الصيني زينغ دي Zheng de (1505 - 1521م)، كان أبرزها الخيول والإبل العربية، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة والمرجان والصوف. وردّ الإمبراطور الصيني على ذلك بإرسال عباءة

1- www.epress.nus.edu.sg; Cheng - hua, year 23, Month 3, Day 27 (20 Apr 1487), Record 2485 of 3279؛ محمد محمود خليل، المرجع السابق، ص 246 - 247.

2- جعفر كرار، المرجع السابق، ص 162. الذي اعتمد في ذلك على سجل أسرة مينغ، الفصل 332 Ming shi, chap. 332. غير أنه ذكر أن ملك مكة السلطان أحمد هو الذي أرسل تلك السفارة إلى الصين. وبمراجعة جدول أشرف مكة المكرمة وجد أن محمد بن بركات (859 - 903هـ/1454 - 1497م) هو الذي كان يحكم المدينة في ذلك العام راجع؛ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، بيروت، 1980م، ص 32.

للشريف بركات عليها صورة تتين مصنوع من الخيوط الذهبية، بالإضافة إلى مسك وأوان ذهبية وفضية¹.

ونتيجة لاستمرارية العلاقات بين بلاط أسرة مينغ في الصين وبين الأشراف في مكة المكرمة في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي، فقد وجد مصدر تاريخي صيني اتصف بأهميته البالغة تمت كتابته في عام 1520م بواسطة هوانغ زنج زنج Huang Xing Zeng وهو يتناول «قائمة الرسائل الخاصة بالضرائب على الجانب الغربي من البحر»، وأشار

يمكننا استنتاج أن أحد سكان مكة المكرمة الذي ورد بالوثيقة تحت اسم نا - دي Na - di، قد ارتحل إلى الصين ومكث بها 40 عاماً يدعو للإسلام بها، وذلك لأن الوثيقة الصينية تصفه بأنه رجل دين رحال.

إلى تعاملات الصين في عهد مينغ مع العديد من دول وموانئ بحر الصين والمحيط الهندي، وكذا مدن وموانئ هرمز ولفار وعدن بالإضافة إلى مكة المكرمة.

على أنه يجب علينا إبراز ملاحظتنا حول ما احتواه ذلك المصدر التاريخي الصيني من معلومات حول مكة، وهي معلومات تكررّت من قبل في مصادر صينية سابقة، وخاصة تأثره بما أورده المترجم المسلم ما هوان في كتابه

بشكل واضح. وقد ظهر ذلك بشكل جليّ منذ السطور الأولى عندما تحدث عن السفر من مدينة قاليقوت إلى مكة عبر اتخاذ الطريق البحري ناحية الجنوب الغربي حتى الوصول إلى جدة، وبعد ذلك السفر غرباً إلى مكة التي عرفت ببلاد المكعب السماوي².

1- جعفر كزار، المرجع السابق، ص 163. لكنه ذكر الإمبراطور الصيني تحت اسم Wu Zang.

2- Hung Xing Zeng, Verzeichnis der Akteneinträge zu Audienzen und Tributen von Westlichen Meer. (Xiyang Chaogong dianln) I 1520n. chr, Inaugural - Dissertation zur Erlangung des Doktorgrades des fachbereichs Geschichte - und Kulturwissenschaften an der freien universität Berlin, 2005, pp. 181 - 189.

راجع تشابه ما ورد في p.181 من هذا المصدر مع ما ورد لدى ما هوان. راجع أيضاً: محمد خليل، المرجع السابق، ص 273. Ma Huan, op. cit, p. 173.



كما تناول المصدر الصيني الأحوال الدينية داخل مكة فذكر أن شريف مكة يرعى تعاليم الإسلام، وأن سكان المدينة يقومون بحني رؤوسهم عند بزوغ القمر، في إشارة إلى صلاة المغرب لدى المسلمين، كما تحدث عن الكعبة الذي تصور أنها تمثال لبوذا له قاعدة من اليشم، وأن سور المسجد الحرام به 466 باباً، وأن ستائر الكعبة تدهن يومياً بماء الورد والعنبر¹.

كما أشار أيضاً في محاكاة لرواية ما هوان إلى حج المسلمين إلى الكعبة المشرفة في اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر الهجري، وإلى أن الجميع يأخذون معهم قطعاً من ستارة الكعبة، التي تقوم السلطات بتغييرها بشكل سنوي، بالإضافة إلى حديثه أيضاً عن قبر سيدنا اسماعيل، ومكان صلوات أصحاب المذاهب الأربعة بالمسجد الحرام².

وعلى الرغم من تأثر ما ورد بهذا المصدر بما سبق أن ورد في المصادر التاريخية والجغرافية الصينية القديمة منذ القرن الثاني عشر، التي كتبها كل من شو كو فاي وشو جو - كوا، وحتى ما هوان في القرن الخامس عشر الميلادي حول الضوء الساطع المنبعث من قبر الرسول الكريم في المدينة المنورة؛ فإن الجديد هنا أن مصدرنا التاريخي الحالي يتناول تلك الظاهرة عبر تفكير أكثر عقلانية وعلمية، بعيداً عن التفكير الأسطوري الذي شاب التفسيرات الصينية القديمة، فقد أوضح المصدر أنه يوجد مصباح ذو خمسة ألوان فوق قبر الرسول، يتوهج صباحاً ومساءً دون انقطاع³.

ومن المؤكد أن تلك الرؤية أصبحت أكثر علمية بعد تزايد رحلات الحجاج الصينيين للحج في مكة المكرمة، وزيارة المدينة المنورة، مما أسهم في نفي صفة الأسطورية عن الرواية الصينية القديمة.

1- Ibid, pp. 181, 184.

2- Ibid, pp. 184- 185; Ma Huan, op. cit, pp. 175- 176.

3- Ibid, p. 186؛ وراجع أيضاً ما كتبه سابقاً شو جو - كوا: Chau Ju - Kua, op. cit, pp. 124, 125 (note).

وما كتبه ما هوان: Ma Huan, op. cit, p. 177.

غير أن مصدرنا الحالي عاد من جديد للتماهي مع رواية ما هوان حول وجود بئر زمزم خلف قبر نبي المسلمين في المدينة المنورة، والملاحظ أيضاً أنه استمر في ترديد ما ذكره ما هوان من تخزين مياه زمزم على متن السفن من أجل رشها على الأمواج الهادرة التي تهددها في رحلة إبحارها، والتأثير الإيجابي الذي تحدثه مياه زمزم عليها¹.

ولم ينس أيضاً مصدرنا التاريخي الصيني الذي جرى تأليفه في القرن السادس عشر الميلادي الإشارة إلى سكان مكة المكرمة، فوصفهم بأنهم يستخدمون اللغة العربية، ويرتدون العمائم والأحذية الجلدية، ولا يسمح لهم بشرب الخمر، بينما تغطي نساء مكة وجوههن². وهو ما سبق أن ذكره ما هوان من قبل.

**استمر أشرف مكة
المكرمة في ممارسة
علاقاتهم الطبية ببلاط
أسرة مينغ في الصين،
فأرسلوا العديد من
السفارات إلى العاصمة
الصينية خلال الأعوام
1532، 1543م.**

واستمرت العلاقات الطبية بين حكام مكة المكرمة والبلاط الصيني؛ إذ تذكر وثائق أسرة مينغ أيضاً أن شريف مكة Ima-du-er قام في عام 1525م بإرسال سفارة من لدنه إلى الصين³.

ويمكننا التعرف على شريف مكة آنذاك وهو أبو نمي محمد (الثاني) بن بركات (918 - 974هـ/ 1512 - 1566م)، بوصفه الذي ورد في الوثائق الصينية تحت الاسم السابق.

بالإضافة إلى ذلك استمر أشرف مكة المكرمة في ممارسة علاقاتهم الطبية ببلاط أسرة مينغ في الصين، فأرسلوا العديد من السفارات إلى العاصمة الصينية خلال الأعوام 1532، 1543م⁴، ومن الواضح أن ذلك كله قد حدث أيضاً في عهد الشريف أبي نمي محمد (الثاني) بن بركات.

1- Ibid, p. 186؛ راجع رواية ما هوان Ma Huan, op. cit, p. 177

2- Ibid, pp. 185, 187؛ انظر ما كتبه ما هوان Ma Huan, op. cit, p. 174

3- جعفر كزار، المرجع السابق، ص 162 اعتماداً على Ming Shi, chap. 332

4- جعفر كزار، المرجع السابق، ص 163، ص 234.



وفي الختام، فإن قراءة جيدة ومتعمقة للمصادر التاريخية والجغرافية الصينية، وكذا وثائق وسجلات الأسر الصينية الحاكمة، تظهر العديد من ملامح العلاقات الوثيقة بين مكة المكرمة والبلاط الصيني في العصر الوسيط، وتكشف عن العديد من المعلومات التي أغفلتها المصادر الإسلامية. فضلاً عن كونها حملت ملامح التصورات والانطباعات الصينية الأولى للجزيرة العربية ومكة المكرمة بوصفها العاصمة المقدسة للعالم الإسلامي بأسره.